

ثم تحولت إما الى جهاز مشلول بسبب عجز فوضويتها التطبيقية عن الانسجام مع تحليلاتها النظرية، او الى جهاز منحرف، وربما انتهازي، بسبب تغليبها الفوضوية التطبيقية وتحويلها الى نوع من البراغماتية.

لا نستطيع، الآن، تقدير ظروف الحزب الشيوعي الفلسطيني في الثلاثينات بدقة، ولكن، بشكل عام، كان امامه واحد من خيارين: إما ان ينتهي، عملياً، كتنظيم، او ان يدخل معمعة الصراع القائم من خلال التناقضات الغنية التي كانت موجودة. تناقضات بين الامبريالية والقيادات الفلسطينية، وبين الاولى والقيادات الصهيونية، وبين القيادات الفلسطينية والقيادات الصهيونية، وبين القيادات الفلسطينية فيما بينها، والقيادات الصهيونية فيما بينها، وبين القيادات الفلسطينية والعمال والفلاحين العرب، وكذلك بين القيادات الصهيونية والعمال اليهود.

في هذه التناقضات هناك، دوماً، خط تقدمي، سواء كان عميقاً واضحاً أو واهياً. والطلعية الثورية يمكن ان تضع نفسها، بمقدار ما تسمح لها وسائلها، في الموقع التقدمي، وتبني تحالفاتها العابرة، او البعيدة المدى نسبياً، على هذا الاساس. ولكي تثبت الطليعة الثورية وجودها، يجب ان تفعل. ولكي تفعل، يجب ان تسير على ارض واقعية، ومن خلال التناقضات الاجتماعية المحسوسة، القائمة فعلاً. في نفس الوقت، يجب ان تكون وظيفية اي خطوة جديدة هي ان تزيد وتعمق صلتها بالعمال والفلاحين. ربما يكون مفروضاً على الطليعة الثورية ان تعمل على المدى القصير، او على المدى الطويل، كل ذلك يتحدد على ضوء المعادلة الزمانية - المكانية - الاجتماعية التي يفترض ان توضع بشكل علمي، وعلى ضوء قوانين التحول الاجتماعي.

١١

لقد تحرك الشعب الفلسطيني في الثلاثينات متأثراً بتأثر قياداته بالاطار العربي. وكان لهذا التحرك سمتان هامتان تختلفان عن بعضهما اختلافاً عميقاً. السمة الاولى هي المتعلقة بالمنظور الكفاحي؛ فالنضال العربي متكامل، ويفترض الآن ومن قبل وفي كل وقت ان تتضمن المنظمات الثورية العربية، وان تجد الصيغ الصحيحة للتعاون في مختلف مراحل المعركة التحررية، والبروليتارية؛ والسمة الثانية هي المتعلقة بالواقع السياسي العربي، اذ كانت المنطقة العربية في الثلاثينات تحت سيطرة الامبريالية البريطانية والفرنسية، والاطار العربي يمكن ان يعني - اذا لم يكن تضامناً نضالياً - وقوع التحرك الفلسطيني تحت تأثير الزعماء العرب، وهذا يعني، بدوره، الوقوع في قبضة الامبريالية. ذلك ما حدث تماماً. فجميع التضحيات الجماهيرية، العربية والفلسطينية، وظفت لصالح حصول الزعماء الرجعيين العرب على مزيد من المكاسب، من جهة، وحسن تنفيذ المخططات الامبريالية، من جهة اخرى. «الارض الصديقة»، التي هي المجال السياسي العربي، كانت، في حقيقتها، تمويلها لأرض معادية لقي فيها آلاف العمال والفلاحين الفلسطينيين الموت أو الدمار أو التشريد.

طبعاً، كان ضرورياً الاستفادة من الامكانيات الايجابية في الواقع السياسي العربي. واكثر من ذلك، ان مثل هذه «الاستفادة» لن تكون، في كل الاحوال، ايجابية فقط، وانما لها مضاعفاتها السلبية؛ ومن السذاجة الا تضع الطليعة الثورية المضاعفات السلبية في